

في العلوم الانسانية و العلوم المعيارية

إعداد الأستاذ : نبيل مسيعد
www.nabilmasad@yahoo.fr

مقدمة : طرح المشكلة

هل يمكن التنبؤ بما يصدر عن الإنسان من سلوك ، هل يمكن التوصل إلى الكشف عن القواعد المتحكمة في سلوك الإنسان ، و اذا كانت العلوم الإنسانية لا تتمتع بالدقة الموجودة في العلوم التجريبية هل يمنع ذلك من قيام علوم إنسانية ؟

الانسان مادة وروح إضافة الى هذا فهو اجتماعي وله من القدرات النفسية ما يجعله يعيش الماضي ويتطلع الى المستقبل وكل بعد على علاقة بالإبعاد الأخرى وفي هذه الحالة هل يمكن تطبيق المنهج التجريبي اثناء دراسة الظواهر الإنسانية .واذا كانت الظاهرة الجامدة مكنت العلماء من تسجيل تقدم كبير فيها وبدرجة اقل في المادة الحية فان الظاهرة الإنسانية مازالت تراوح مكانها ذلك نظرا لمميزاتها

I . العلوم الإنسانية

1 ـ مفهوم العلوم الإنسانية

العلوم الإنسانية هي علوم متخصصة في دراسة الفئات البشرية من حيث أنماطها وصور حضارتها في الحاضر او في الماضي وتتقاطع عدة علوم في دراسة الإنسان منها علم الانتروبولوجيا وعلم النفس وعلم التاريخ وعلم الاجتماع وعلم الأخلاق ومهما اختلفت هذه العلوم في مناهجها وأهدافها فهي تجتمع حول موضوع واحد وهو الإنسان .

إن العلوم الإنسانية هي مجموع الاختصاصات التي تهتم بدراسة مواقف الإنسان وأنماط سلوكه , وبذلك فهي تهتم بالإنسان , من حيث هو كائن ثقافي , حيث يهتم علم النفس بالبعد الفردي في الإنسان ويهتم علم الاجتماع بالبعد الاجتماعي , ويهتم التاريخ بالبعدين الفردي والاجتماعي معا لدى الإنسان ,

2 ـ موضوعها

هو كل ما يصدر عن الإنسان من انواع السلوك ، سواء كفرد مستقل بذاته او كعضو في المجتمع .





3 ـ الفرق بين العلوم الإنسانية و العلوم المعيارية والعلوم التجريبية.

اذا كانت العلوم المعيارية تهتم بما ينبغي ان يكون مثل المنطق الذي يبحث فيما يجب ان يكون عليه الفكر حتى لا يقع في الخطأ وعلم الاخلاق الذي يهتم بما يجب ان يكون عليه سلوك الانسان و حثه على فعل الخير ، و علم الجمال الذي يضع الاسس و المعايير التي تقاس بها الاعمال الفنية فغايته التمييز بين القبيح و الجميل . وهي في هذه الحالة ابعد ما تكون عن الدقة المطلوبة ولهذا يقال لا يوجد علم معياري بمعنى ان فكرة العلم المعياري فكرة متناقضة ، متداعية ، لان قضايا العلم تستمد من الواقع و تعبر عما هو كائن بصيغة المضارع كان نقول : الحديد يتمدد بالحرارة و هذا ما يسمى أحكاما " تقريرية " واذا كان الأمر كذلك أي اذا كان العلم يعبر فقط عما هو كائن ، فمن التناقض تصور علم بكل معاني كلمة العلم تكون أحكامه غير مستمدة من الواقع ، بل تعبر فقط عما يملي على الواقع او عما يجب ان يكون عليه الواقع و ذلك طبعا بصيغة الأمر كان نقول : يجب ان يتمدد الحديد بالحرارة ، مثل هذه الأحكام تسمى معيارية او تقويمية و تقوم عليها عند الفلاسفة علوم كالمنطق و الأخلاق و علم الجمال ، وهي علوم تفرض معايير تقاس عليها الأحكام المنطقية او الخلقية او الذوقية . وفيما يختص بالمنطق يصبح في نطاق هذا التصور هو العلم الذي يرسم لنا قواعد التفكير الصحيح ليجنبنا الخطأ و من ثم جاء وصفه بالمعيارية .

هذا التصور المعياري للعلم هو تصور متناقض في نظر ليفي برويل لانه لا يمكن ان يجتمع في آن واحد فكرة العلم و فكرة المعيارية أي الأحكام التقريرية و الأحكام المعيارية فالأخلاق مثلا ان كانت علما بكل معاني الكلمة فهي لا يمكن ان تكون معيارية أيضا اعنس انها تنحصر في استقصاء الوقائع السلوكية للإنسان كما هي حادثة فعلا في المجتمعات و تستنبط منها قوانينها كما في العلوم الحقة ، لا ان تشرع قوانين مثالية للسلوك و تلزم الناس بها فلكل مجتمع سلوكه الذي ينطوي على تصوره الخاص للخير و الفضيلة وهذا الخير الواقعي لا الخير الذي يبتدعه الفلاسفة هو موضوع الأخلاق اذا اريد تأسيس الأخلاق كعلم وضعي ولهذا لايقر ليفي برويل بوجود علم الأخلاق و استبدله بعلم العادات لا نها تصبح دراسة للظواهر السلوكية المعتادة في كل مجتمع على حدة.اما العلوم الإنسانية فتدرس ما هو كائن سواء في علم النفس او علم الاجتماع او التاريخ .

هذه الخصائص نجد بعضها في العلوم الإنسانية ، ولكن هذا لا يسمح بوصفها بالعلوم المعيارية لاننا في المقابل نجدها تعتمد تحاول الاعتماد على المنهج التجريبي و الاستفادة من نتائج العلوم التجريبية .

II . إمكانية قيام علوم إنسانية

يرى البعض استحالة قيام علوم إنسانية لان من شان العلم ان يقوم على الموضوعية والملاحظة والتجريب والسببية والحتمية وهذا متعذر عند دراسة الإنسان . و يتضح هذا عند ذكر العوائق التي تقف امام الدراسات الإنسانية

و لم تكن الظاهرة الإنسانية هي الوحيدة التى عانت من عوائق تمنع من دراستها بالشكل اللائق ، لقد وجدت مثل هذه العوائق وكانت تحد من دراسة المادة الجامدة و بشكل اكثر عند دراسة المادة الحية ، هذه العلوم تمكنت من تجاوز هذه العوائق بشكل متفاوت يختلف من علم لاخر فما المانع مد تكرار هذا التجاوز في العلوم التي تدرس الإنسان





عوائق تطبيق المنهج التجريبي على الظاهرة الإنسانية

تختلف الظاهرة الإنسانية عن ظواهر الطبيعة ، ان الظواهر الطبيعية ذات طبيعة تسمح بتطبيق المنهج التجريبي عليها دون صعوبة تذكر خاصة عندما يتعامل المنهج مع المادة الجامدة ، لكنه يصطدم بعوائق عندما يتعامل مع المادة الحية ، لكن يمكن القول ان العلماء في طريقهم الى تجاوز هذه العوائق بفضل التطور التكنولوجي .

لكن الظاهرة الإنسانية اشد تعقيدا عما وجده العلماء في المادة الحية ، انها متداخلة بحيث لا يمكن ان ينفرد علم واحد بدراستها ، ان الإنسان موضوع لدراسة علوم كثيرة بما فيه العلوم التجريبية يضاف الى ذلك علوم اخرى تدرس سلوك الانسان وردود أفعاله ، واثر ذلك في حاضر المجتمع او مستقبله ، كما تلفت هذه الدراسات الى ماضي الإنسان لأنه قد يؤثر في حياته القادمة . و العوائق المسجلة هنا متفاوتة من علم لأخر .

يقول كلود ليفي ستروس : " يفترض كل بحث علمي ثنائية الملاحظ وموضوعه ففي العلوم الطبيعية يضطلع الإنسان بدور الملاحظ ويتخذ من العالم موضوعا له ... وان كانت العلوم الإجتماعية والإنسانية علوما حقيقية فإنه يعين عليها ان تبقي على هذه الثنائية ... وبذلك تصبح القطيعة بين الانسان الملاحظ والانسان الملاحَظ فردا كان او جماعة ." ويضيف قائلا : " ان الفرق الاساسي بين العلوم الفيزيائية والعلوم الانسانية لا يتمثل حينئذ كما يقال عادة في ان العلوم الفيزيائية تنفرد بالقدرة على القيام بتجارب ، وعلى اعادتها كما هي في ازمنة وامكنة اخرى فالعلوم الانسانية تسنطيع ذلك هي ايضا وان لم تكن كل العلوم الانسانية قادرة على ذلك فان بعضها من قبيل اللسانيات وبدرجة اقل علم السلالات . "

ومن كلام ستروس نفهم ان العلوم الانسانية اذا ارادت لنفسها مكان بين العلوم على المختصين في هذا المجال المحافظة على شرط الموضوعية والاقتداء بما يقوم به العلماء في مجال العلوم التجريبية ، فهل يمكن ذلك وهل يستطيع العلماء الالتزام بالروح العلمية و الفصل بين الذات الدارسة والموضوع المدروس مثل ذلك الجيولوجي الذي يبحث في الصخور فلا علاقة او عاطفة تربطه بموضوع دراسته الا ما تسفر عنه الابحاث و النتائج . هذا ما نحاول الكشف عنه من خلال التطرق لثلاثة علوم انسانية، التاريخ و علم النفس و علم الاجتماع .





1 . الظاهرة التاريخية

الظاهرة التاريخية

هي كل ما صدر عن الانسان من أفعال في الماضي ، بشرط ان يترك هذا الفعل اثر واضح في حياة الإنسان . بمعنى ان الظواهر التاريخية لا تطلق الا على الأحداث المهمة ، والتي يمكن ان يكون مصدرها الطبيعة كالزلازل و البراكين و لكن بشرط ان يقع اثرها بشكل مباشر على من عاصرها . هذه الأحداث يكشف عن اسبابها علم التاريخ .

مفهوم علم التاريخ

هو الدراسة العلمية لحوادث انسانية ماضية .أي هو التعرض للحوادث البشرية الماضية من حيث اسبابها وحركاتها ووسائلها والنتائج التي تترتب عنها أي هو دراسة الانسان في صيرورته وتطوره عبر العصور الزمنية المختلفة فموضوع التاريخ هو البحث في جميع ظواهر الحياة السياسية والاقتصادية للبشر .

خصائص الظاهرة التاريخية وعوائق دراستها

ـ الحادثة التاريخية فردية ، لا تتكرر أي انها تحدث مرة واحدة ولن تتكرر في نفس الظروف ومنه القول بان التاريخ يعيد نفسه ليست صحيحة تماما . ولا تخضع لقانون الحتمية ، ولا يمكن اصطناع الحادثة التاريخية ، وليس من السهل تحديد المنطلقات الحقيقية للحادثة بشكل دقيق ، كما دراستها تفتقر الى الموضوعية و الدقة .

هذه الخصائص يمكن النظر اليها على أساس انها تشكل عوائق كبيرة اما المؤرخ ، خاصة و ان المؤرخ انسان له معتقدات وميول شخصية التي قد تؤثر على موضوعيته .ومن هنا ماهي السبل والكيفية التي يستطيع من خلالها المؤرخ تجاوز هذه العوائق .

تجاوز العوائق في دراسة الظاهرة التاريخية

إنه مما لا شك فيه أن هذه الاعتراضات لها ما يبررها من الناحية العلمية خاصة غير أنه ينبغي أن نؤكد بأن هذه الاعتراضات لا تستلزم الرفض القاطع لعملية التاريخ لأن كل علم له خصوصياته المتعلقة بالموضوع وبالتالي خصوصية المنهج المتبع في ذلك الموضوع فهناك بعض المؤرخين استطاعوا أن يكونوا موضوعيين إلى حد ما وان يتقيدوا بشروط الروح العلمية .

يذهب بعض المفكرين إلى القول بأن الذين نفوا أن تكون الحوادث التاريخية موضوعا للعلم لم يركزوا إلا على الجوانب التي تعيق الدراسة العلمية لهذه الحوادث فالظاهرة التاريخية لها خصوصياتها فهي تختلف من حيث طبيعة موضوعها عن العلوم الأخرى , وبالتالي من الضروري أن يكون لها منهج يخصها . وهكذا أصبح المؤرخون يستعملون في بحوثهم منهجا خاصا بهم وهو يقترب من المنهج التجريبي ويقوم على خطوط كبرى هي كالآتي :

المنهج في علم التاريخ

بما ان الظاهرة التاريخية فريدة من نوعها و لا أمل في تكرارها ، فلأجل دراستها لا يجد المؤرخ من سبيل ، الا الاعتماد على أثار الحادثة . فكيف يمكن الوصول الى الحقيقة التاريخية من خلال هذه الاثار ؟





1 ـ جمع المصادر

وهي كل ماله صلة بالحادثة التاريخية وتختلف باختلاف الحوادث وهي نوعان :

1 ـ مصادر مباشرة

وهي مصادر وضعت وكان القصد من وضعها حفظ التاريخ فتسجل في الكتب والأشعار والروايات والملاحم والنصب التذكارية والمتاحف ... الخ وهذه المصادر ينبغي ان يتعامل معها المؤرخ بحذر وتحفظ .

2 ـ مصادر غير مباشرة

وهي وثائق وضعت إبان الحادثة وغرضها الاستعمال الآني والمنفعة المؤقتة كالرسائل والمباني والنقود والأسلحة وهذه الوثائق أحسن ما يستند عليه المؤرخ .

2 ـ التحليل التاريخي

مؤرخ يعمل على التاريخ للثورة الجزائرية و اذا به يعثر على رسالة كتبها احد الجنود الجزائريين كان قد بعث بها الى اهله يخبرهم عن احواله و ظروف الحرب .

كيف يتحقق المؤرخ ان الرسالة تعود الى سنوات الحرب الجزائرية ؟

ـ قد ينظر الى الشكل الخارجي للورقة و ينظر ان كانت قديمة و لونها قد تغير عبر الزمن ، لكن الا يمكن لمن يريد تشويه التاريخ ان يستعمل ورقة قديمة ليكتب عليها نص حتي يظن القارئ انها تعود الى فترة الاستعمار ؟

يقوم المؤرخ في هذه المرحلة بفحص الوثائق والمستندات والمصادر التي يجمعها وينظر في صحتها وهل هي مزورة او ناقصة او خيالية ويبدأ المؤرخ في دراسة الوثيقة في حد ذاتها (الشكل ، الحبر ، الورق) ويستعين المؤرخ بعلوم مساعدة لمعرفة صحة الوثائق كالتحليل الكيميائي للتأكد من زمن الوثيقة وزمن الحبر مثلا وعلم الجيولوجيا للتأكد من صحة الأحجار الأثرية.

كما يلجأ المؤرخ الى المقارنة بين المصادر، كما يستعين بعلم الخطوط لمعرفة الخط الذي كتبت به الوثيقة وهو الفن الذي يستعمل في قراءة خطوط اللغات القديمة و يستعين بعلم اللغة (الالسنية) فينتهي به النقد الى معرفة صحة الوثائق في جانبها المادي . ومن هنا فروح النقد ضرورية في التاريخ فاذا كان هذا النقد خارجي للوثيقة فان النقد الداخلي يركز على محتوى الوثيقة فيتعرف المؤرخ على افكار الكاتب وتصوراته للمجتمع الذي يعيش فيه ومذهبه والظروف المحيطة به .

واحيانا يكون مضطر للاستعانة بالتحليل الكيميائي للوثيقة ،بعد نقدها شكلا ومضمونا ، فاذا عثر المؤرخ على وثيقة تعود لزمن الفتوحات الاسلامية .

1 ـ التأريخ بالفحم 14 : يتحول الفحم 14 الى نيتروجان ثابت بدورة نشاط اشعاعي تساوي 5568 سنة أي ان بعد 5568 سنة تصبح كمية الفحم 14 نصف ماكانت عليه ...نستطيع ان نحدد تاريخ وفاة أي كائن حي لانه عندما يموت تتواصل فيه عملية التحطيم النووي للفحم 14 الذي يتغير الى نيتروجين دون ان يستوعب من المحيط فحما 14 اخر اذ انه ميت وتنخفض هكذا شيئا فشيئا نسبة الفحم 14 في الكائن الميت فاذا انخفضت هذه لنسبة الى النصف فقد مرت فترة زمنية طولها 5568 سنة أي ان الكائن الحي مات منذ 5568 سنة واذا تحلل الكربون بصفة كاملة يكون قد مات الكائن منذ 11136 سنة وهكذا .

ثم وجدوا ان الكربون 14 غير فعال احيانا ، لان الفترة التي يمكنه الكشف عنه قصيرة نوعا ما ، وهنا لجاء المؤرخون الى التاريخ بالبوتاسيوم ـ ارغون .





2 ـ البوتاسيوم ـ ارغون : عنصر البوتاسيوم غير ثابت مثل الفحم 14 فيتحطم نوويا ويتغير الى عنصر الارغون 40 وهو عنصر ثابنت ولكن دورة نشاطه النووي كبيرة جدا وهي 1300 مليون سنة والعملية مشابهة الى تماما عملية التاريخ بالفحم 14 غير ان الفترة الزمنية الدنيا تفوق هنا 500 مليون سنة أي تفوق 10000 مرة الفترة المقدرة بوسيلة الفحم 14 فهي تتروواح بين 500 و 5000 مليون سنة

3 ـ علم الاحاثة : توجد الادوات الحجرية عادة في محيط عاشت فيه كائنات حية في عصور معروفة كانواع من الحازون وانواع من السمك ...عاشت في وقت معروف وانقرضت فوجودها مع الادوات التي نعتزم تاريخها يثبت ذلك التاريخ بصفة تقريبية .

4 ـ علم الطبقات : الادوات الحجرية توجد ايضا في طبقات ارضية معروفة عادة باساليب علمية اخرى فمعرفتناللطبقات الارضية يدلنا على تاريخ الادوات بصفة تقريبية .

5 ـ جداول الادوات الحجرية : وضعت هذه الجداول ودققت من طرف هيئات علمية عديدة تجمع المعلومات من كل انحاء الارض في تاريخ الادوات واحدة بعد الاخرى فاذا ودنا اداة في مكان لا نستطيع تاريخه ننظر التاريخ الذي صنع فيه الانسان تلك الاداة في الجداول فنحصل تاريخا كافيا عادة .وقد نشر مثلا المركز القومي للبحث العلمي الفرنسي جدولا مفصلا في 25 فترة زمنية للعصور قبل التاريخ صنعت فيها ادوات حجرية يتراوح يمتد اريخها في الماضي الى 6 مليون سنة من الان .

3 ـ التركيب التاريخي

بعد التاكد من صحة الوثائق يقوم المؤرخ بظم بعضها الى بعض حتى تعطي صور واضحة أي يقوم بعملية التركيب فيرتب الحوادث ويصنفها حسب التسلسل الزمني والمكاني ويحدد العلاقات الموجودة بينها . واذا وجدت فجوات وثغرات بسبب غياب الوثائق يعمد الى الا فتراض المعقول .

4 ـ تفسير التاريخ

وهو الكشف عن الاسباب والشروط التي أدت الى وقوع الحوادث التاريخية .

هذه المراحل وان كانت ضرورية لكل مؤرخ فان المؤرخين ولأسباب تتعلق بالقيم والايديولوجيا(الايديولوجيا هي منظومة من الافكار والمعتقدات والمواقف تؤثر على العلوم الانسانية حين تتسلل خفية فتؤثر على موضوعية المؤرخ) التي يؤمنون بها ، تتعدد مناهجهم وهذا يؤدي الى اختلاف تفسير الحادثة التاريخية ومن هذه المناهج .

1 ـ المنهج الفردي : التاريخ عند هذا الصنف من المؤرخين يعني تتبع سير حياة الرجال العظماء والابطال لصلتهم بحركة التاريخ .وما يتميزون به من خصال تجعلهم يحركون التاريخ بمعنى ان التاريخ مسجل في حياة هؤلاء وان عصره يكون مطبوع بافكاره ، واثاره .

2 ـ المنهج الاجتماعي : اذا كان المنهج السابق يرى أن التاريخ من صنع البطل فان هذا المنهج يرد ذلك للمجتمع الذي تمخض عن ميلاد البطل بمعنى لا قيمة لدور البطل مادام ظهوره متعلق بالمجتمع الذي يعيش فيه فالتاريخ عملية اجتماعية . ويعد ابن خلدون رائد هذا المنهج

3 ـ المنهج الاقتصادي : ظهر هذا المنهج مع ماركس وانجلز يفسر حوادث التاريخ بالنظر الى العلاقات الانتاجية وما يتفرع عنها من ظواهر اقتصادية تؤثر بشكل مباشر في النظم الاجتماعية والفكرية والسياسية .ان التاريخ عند هؤلاء يتجلى في تضارب المصالح بين الطبقات .

نقد و تقييم التاريخ

اذا كان علم التاريخ يوقفنا على احوال الماضين من الناس في حياتهم المدنية و في أخلاقهم و سياستهم و ديانتهم و أساليبهم في الانتاج و التجارة ومنه نأخذ العبر ، ويساهم التاريخ من جهة اخرى في منح





الإنسان هويته و يحصنه من الذوبان في الأمم الاخرى ، فانه لم يسلم من الانتقاد خاصة من حيث صعوبة تحقيق الموضوعية في الدراسات التاريخية فقد تتسلل الذاتية من حيث لا يشعر فيركز على البعض الاحداث و يهمل الأخرى ، وفي حالات اخرى لا يتمكن من جميع المصادر الكافية وفي هذه الحالة يلجأ الى الافتراض ، ومهما كان حذرا فانه من الممكن ان يجانب الصواب و بالتالي لا يستطيع ان يكون صورة صحيحة عن الحدث التاريخي المدروس . هذا اذا حسنا الظن بالمؤرخ اما اذا تعمد التضليل و تشويه التاريخ فان القضية تتعقد اكثر ، وكل هذا نتيجة لطبيعة الظاهرة التاريخية التي تتميز التعقيد . يقول المفكر شاكر مصطفى محاولا كشف العوائق التي تصادف المؤرخ و منه الدفاع عن هؤلاء العلماء ان لم يدركوا الصواب يقول : " نحن مضطرون مبدئيا الى ان نقرر دون أسف او غضب ان نوعية المعرفة التاريخية ليست مطابقة لنوعية وطبيعة المعرفة في العلوم ، لان الحادث التاريخي في الأصل وهو موضوع تلك المعرفة ، ليس مشابها للحادث الفيزيائي او الكيميائي المبسط ، و لا البيولوجي أيضا . انه من التعقيد الخفي بحيث تصبح الحادثة الفيزيائية بعلاقاتها الرياضية لعبة أطفال أمام تشابك القوانين في أي حادث تاريخي صغير " ولكن مع ذلك لا يجب ان يخرج التاريخ من بين العلوم ، فان كان لم يصل الى الموضوعية المطلوبة فهذا ليس من شان علم التاريخ فقط فالكثير من العلوم تنقصها الموضوعية ،هذا بالإضافة الى الجهود المبذولة من طرف المؤرخين للإفادة من مناهج العلوم الطبيعية الابتعاد قدر الإمكان عن تاثير العوامل الذاتية .

إن للحادثة التاريخية خصائصها مثلما للظاهرة الحية أو الجامدة خصائصها وهذا يقتضي اختلافا في المنهج وهذا جعل من التاريخ علما من نوع خاص ليس علما استنتاجيا كالرياضيات وليس استقرائيا كالفيزياء و إنما هو علم يبحث عن الوسائل العلمية التي تمكنه من فهم الماضي وتفسيره وعلى هذا الأساس فإن القول بأن التاريخ لا يمكن أن يكون لها علما لأنه يدرس حوادث تفتقر إلى شروط العلم أمر مبالغ فيه , كما أن القول بإمكان التاريخ أن يصبح علما دقيقا أمر مبالغ فيه أيضا وعليه فإن الحوادث التاريخية ذات طبيعة خاصة , مما استوجب أن يكون لها منهجا خاصا بها . وبالتالي فالتاريخ علم يحدد موضوعه الخاص ويتبع في ذلك منهجا يتفق مع طبيعة الموضوع وهذا يؤهله لأن يكون جديرا بأن يعد من مجموع العلوم .

إن العلوم أنواع مختلفة واعتبار التاريخ ليس مؤهلا لأن يكون علما صحيحا مثل الرياضيات والفيزياء لأن نتائجه ليست دقيقة وثابتة فهو علم يهتم بالحوادث الإنسانية ويتبع طرقا علمية في تحليلها ودراستها وإذا كانت العلوم الإنسانية لم تصب من التقدم ومن الدقة نصيبا يعادل ذلك الذي حققته الفيزياء مثلا فإن هذا الوضع الذي توجد عليه حاليا لا يمنع من السير نحو المزيد من التقدم والضبط . فالعلم طريقة في التفكير ونظام في العلاقات أكثر منه جملة من الحقائق . إذ يمكن للمؤرخ أن يقدم دراسة موضوعية فيكون التاريخ بذلك علما , فالعلمية في التاريخ تتوقف على مدى التزام المؤرخ بالشروط الأساسية للعلوم . وخاصة الموضوعية وعليه فإن مقعد التاريخ بين العلوم الأخرى يتوقف على مدى التزام المؤرخين بخصائص الروح العلمية والاقتراب من الموضوعية .





2 . الظاهرة النفسية

الظاهرة النفسية

الإنسان ليس كائن بيولوجي فقط فبالإضافة الى النشاط الحيوي الذي يقوم بـه الجسم من تنفس و و هدم و بناء على مستوى الاعضاء و هضم و نمو فانه يقوم بأفعال ارادية و غير ارادية و يقوم بانشطة لا يمكن تفسيرها عضويا و تصدر عنه ردود افعال غير متوقعة ، وله علمه الداخلي المليء بالانفعالات و العواطف ، و يفكر و ويتذكر ويمارس باقي الأنشطة الذهنية ولها دورها في حايته و لا يمكن باي حال تجاوزها و عدم دراستها و الكشف عن أسبابها و كمحاولة التحكم فيها و هذا ما يطمح اليه علم النفس .

مفهوم علم النفس

النفس هي مبدأ الحياة والفكر والحس والحكة الارادية مادام مخالطا للبدن ويقابلها الجسم .، و علم النفس هو علم الخبرة الشعورية او علم السلوك الفردي ويبحث فيه من جهة معرفة اسبابه أي دوافعه والدوافع في علم النفس تقابل القوانين في مجال الطبيعة . او هو العلم الذي يدرس النفس من حيث هي محل لاحوال او مصدر لافعال لمعرفة طبيعة هذه الاحوال وشروط هذه الافعال .

و يمكن تعريفه بانه الدراسة العلمية لسلوك الإنسان و ذلك بهدف التوصل الى فهم السلوك و تفسيره و التنبؤ به و التحكم فيه .واول من ادخل علم النفس الى المختبرات هو عالم النفس الالماني و ليم فونت سنة 1879 . وهو متعدد بتعدد مناهجه .

خصائص الظاهرة النفسية وعوائق دراستها

الحوادث النفسية كالانفعال و التذكر و الخوف و الغضب حالا نفسية ذاتية ، ليس من السهل دراستها من الخارج ، فلا يمكن الحكم على سلوك الانسان من خلال شكله الخارجي لانه ممكن ان يتظاهر بذلك ولهذا من الاحسن ان يعود الانسان الى الداخل ويستبطن حالته النفسية و يخبر عنها . وهذه اهم خصائصها .

- موضوع علم النفس لا يعرف السكون
- لا يمكن تحديد مكان الشعور و الانتباه و القدرات النفسية
- احوال النفس في تغير مستمر و دائم و دراستها تعني ايقاف هذا الديمومة
- غير قابلة للتكرار
- نتائج الدراسة في علم النفس غير قابلة للتعميم
- تعتمد الدراسة فيه على الوصف بطريقة كيفية
- يعتمد على اللغة وهي قاصرة
- احداث النفس لا يشعر بها الا صاحبها
- تحققت الموضوعية في العلوم الطبيعية نظرا لاستقلال الباحث عن موضوع البحث اما في علم النفس فهما متصلان وقد يكون الباحث هو موضوع البحث وهنا يجد صعوبة في التخلص من ميوله ورغباته وارائه ومعتقداته لهذا قال بول نواكيه منتقدا علم النفس : " كان علم النفس هو الأول من بين هذه العلوم ... بفضل الاستنباط (الاستبطان) بيد ان تفحص هذه الميزة تفحصا نقديا ما لبث ان أحالها الى عيب يتطلب اعادة النظر اذ اننا لا نستطيع ان ندعي بشيء من الموضوعية ما دمنا خصوما وحكاما في نفس الوقت ." يقول بول غيوم : " ان علماء النفس طلبا لشروط وقوانين الحوادث التي يدرسونها يؤمنون





بالحتمية او هم على الأقل يسلمون بها كفرض من اجل العمل بدونه يفقد كل بحث معناه ولا يستطيع حتى تحديد موضوعه وبطبيعة الحال فان القائمين بهذه البحوث لا يمكنهم ان يغلطوا في مدى تحقيقهم لهذا الغرض بل هم يأملون فقط في تحسين تقريباتهم تدريجيا فالعلم الفتي ينبغي ان يتواضع لكن الامل ليس محظورا عليه . "

تجاوز العقبات في علم النفس

كشف اعماق النفس الانسانية يبدو انها اعقد مما تصور العلماء ، وقد يكون تعدد المناهج التي تدرس الأحوال النفسية مؤشرا على صعوبة ايجاد قوانين وعوامل واضحة تتحكم في ما يصدر عن النفس من أفعال . وأحوال .

فعبارة علم النفس توهمنا بوجود علم يدرس طبيعة النفس البشرية التي هي في الأصل جوهر ميتافيزيقي يستحيل دراسته بطريقة علمية أو بكيفية تجريبية , إلا أن المحدثين من العلماء على غير القدماء يجردون علم النفس من كل طابع ميتافيزيقي ويعتبرونه بحثا في ظواهر النفس لا في جوهرها وهو ما يمكن من قيام علم النفس كعلم وضعي يعتمد على الملاحظة والتجربة كغيره من العلوم الأخرى , إلا أن طريقة البحث فيه تبقى مختلفة .

المنهج في علم النفس

1 - منهج الإستبطان

الاستبطان : هو ملاحظة الذات لاحوالها وافعالها الباطنية اما لمعرفتها من حيث هي شخصية واما لمعرفتها من حيث هي مماثلة لغيرها introspection وهو معرفة احوال النفس بالانعكاس . منهجه ذاتي ومعرفته ذاتية ، ثم تعمم الملاحظة كقانون عام على اساس ان الطبيعة البشرية واحدة ويعتمد على اللغة يقر بفعاليته برغسون .

إن الحوادث النفسية حوادث باطنية , يعانيها الشخص ذاته من الداخل إذ لا يمكن للغير أن يطلع عليها ولهذا فهي تقتضي في معرفتها الإدراك المباشر , الذي يكون عن طريق التأمل الذاتي للأحوال النفسية وهذا هو الاستبطان وهو يقوم على ملاحظة الشخص لنفسه وأحوالها ثم تحليل حالاته النفسية ومحاولة تفسيرها وفهمها , والدراسة النفسية التي تتم بهذه الكيفية تسمى باطنية , وعلى هذا الأساس فإن الاستبطان يعتبر منهجا في علم النفس وهو لا يعني مجرد الشعور بالظاهرة أو الحالة النفسية بل هو ذلك التأمل العميق الذي تقوم به الذات وهي في حالة وعي ويقظة من أجل فهم الحالة النفسية المدروسة ومن ثمة تحديد أسبابها ووضع قوانين لها . ولقد كان لهذه الطريقة أهمية كبيرة عندما كان الشعور موضوع الدراسة في علم النفس . و تعتبر المدرسة الشعورية في علم النفس أهم من قال بالاستبطان , و هي تدعم هذا المنهج بدعوى وحدة الطبيعة البشرية .كما كان للاستبطان أنصارا منهم "مونتاني " الذي يقول : " لا أحد يعرف هل أنت جبان أو طاغية إلا أنت , فالآخرون لا يرونك أبدا " وهكذا فإن الحوادث النفسية ولما كانت تنطلق من باطن الإنسان فلابد للباحث في علم النفس أن يعتمد التأمل الذاتي في فهم الأحوال النفسية .

لكن تعرض هذا المنهج لانتقادات لاذعة فهذا بول غيوم يتساءل حول مصداقية هذا المنهج قائلا : " افليست دراسة الذات هي بالضرورة معالجتها كموضوع ؟ وهذا مايفعله الاستبطان ان كان صحيح ان هذه الطريقة تستلزم ازدواجا يصبح فيه الفكر موضوعا للفكر " ونفس الاعتراض لهذا المنهج نجده عند اوغست كونت : " يلاحظ انه لا مكان باي وجه من الوجوه لعلم النفس الوهمي هذا الذي هو اخر





تحول للهوت والذي يراد عبثا بعثه اليوم من جديد ... يدعي التوصل الى الكشف عن قوانين الفكر البشري الاساسية بتأمله في ذاته أي باهمال كل من الاسباب والنتائج اهمالا كليا " ويضيف : " ان هذا التأمل المباشر (الاستبطان) المزعوم الذي يقوم به الذهن على ذاته هو مجرد وهم " ويقول : " حتى لو تمكن احد من القيام بمثل هذه الملاحظات على نفسه فلن تكون لها من دون شك اهمية علمية كبيرة ابدا وتكون افضل وسيلة لمعرفة الاهواء هي دائما ملاحتها من الخارج " ويقول : " فالفرد المفكر لا يمكنه ان ينشطر شطرين احدهما يفكر والاخر يشاهد التفكير ". ويرى انه اذا كان بامكانك رؤية نفسك ـ ذاتك ـ من النافدة و هي تمر في الشارع فانه يمكنك في هذه الحالة الاستعانة بمنهج الاستبطان

ان الاستبطان رغم النتائج الإيجابية التي حققها والخدمات الكثيرة التي قدمها لعلم النفس في الكشف مباشرة عن الأسباب الداخلية للحوادث النفسية فإنه لم يعد طريقة علمية وهذا لاتحاد ذات الملاحظ بموضوعها , فلا يستطيع الإنسان أن يطل من النافذة ليرى نفسه سائرا في الطريق . وهكذا فقد لقيت هذه الطريقة اعتراضات شديدة . تتجه إلى القول بأن المنهج العلمي يتطلب الملاحظة الخارجية .

2 ـ المنهج السلوكي

إن المنهج الاستبطاني لم يكن منهجا علميا فقد كانت نتائجه ذاتية تأملية , وحتى يكون المنهج علميا لابد أن يكون موضوعيا وحتى يكون كذلك لابد أن تخضع فيه الظواهر إلى الملاحظة الخارجية أي ملاحظة السلوك . فكما أن للظاهرة النفسية باطن خفي لا يدركه إلا صاحبه فإن لها ظاهر مرئي يمكن ملاحظته في سلوك الإنسان الخارجي ، وهذا ما نجده عند أصحاب المنهج السلوكي .

السلوك : هو جملة الافعال القابلة للملاحظة الحسية التي يرد بها الكائن الحي على مؤثراث خارجية .السلوك هو رد فعل العضوية تجاه المثيرات ومنه يمكن تحديد القوانين المتحكمة في السلوك كما فعا فيير في قانونه : " ان الكمية التي يجب اضافتها الى اثارة ما لاحداث فرق في الاحساس هي في الظروف العادية جزء ثابت من الايثارة "

وفي هذا المنهج لابد من قياس الضغط والنبض والتنفس والكهرباء الدماغية وهذا ما قام به كوفكا وبافلوف وواطسون و يركس و ثورندايك . ودور علم النفس هو الوصول الى التوقع والتنبؤ والاستجابة . يقول جون واطسون : " ان علم النفس كما يرى السلوكي فرع موضوعي و تجريبي محض من فروع العلوم الطبيعية هدفه النظري التنبؤ عن السلوك و ضبطه "

ان السلوكية مذهب من يقصر موضوع علن النفس على على ما يلاحظ من السلوك الخارجي من حيث هو حركة او لغة او إفرازات غدية مع استبعاد الشعور وطريقة الاستبطان يقول بيار نافيل : " ان السلوكي يرى قبل كل شيئ ان الميدان الحقيقي لعلم النفس لا يتمثل الا في الحركات القابلة للملاحظة فلا يمكن صياغة قوانين ولا القيام بالقياسات الا بالنسبة الى الى اشياء قابلة للملاحظة بطريقة مباشرة او غير مباشرة " ويضيف بيار نافيل : " فالسلوكية قسم من العلوم الطبيعية ميدانه الخاص هو كل مجال التكيفات البشرية وهي لا تريد ان تلجأ الا الى مناهج العلوم الموضوعية وهي مناهج القياس وبالتالي مناهج الملاحظة الخارجية " ويقول ان السلوكي لا يرضى ان يكون مجرد مشاهد لنشاط الانسان بل يريد مراقبته وتوجيهه كما تجتهد في ذلك جميع العلوم الطبيعية الاخرى "

لكن هذا المنهج يؤدي الى تداخل علم النفس والفزيولوجيا ، كما ان الاستجابات للمثير تختلف باختلاف الأفراد





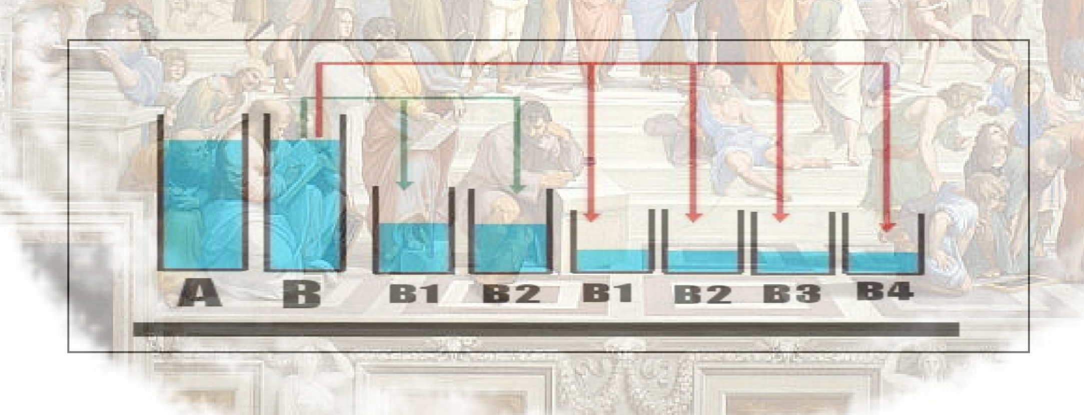
3 ـ منهج التحليل النفسي

يستعماه علماء النفس التحليلي معتمدين على المحادثة والحوار وعند فرويد وهو منهج بعيد عن الدقة العلمية ومؤسس على مسلم اللاشعور لا يهدف الى تفسير الظواهر النفسية بل يهدف الى العلاج ويقوم هذا المنهج على التداعي الحر كوسيلة لسرد الذكريات ومحور التحليل النفسي هو مرحلة الطفولة لانها مصدر تكوين الشخصية والعقد النفسية تعتمد على تشجيع المريض حتى يتذكر كل شيء يتعلق بحياته الماضية وكا ما يذكره المريض له دلالات ومعاني ينبغي الوقوف عندها .

4 ـ المنهج التجريبي

ويكون عن طريق اصطناع مواقف تجعل المجرب عليه يقوم بردود افعال وسلوكات ثم تفحص هذه الاخيرة بالمقارنة مع سلوكات اخرى ناتجة عن منبهات مختلفة واستخدام الاحصاء في تحليل وتوضيح السلوك ، صياغة النتائج صياغة رياضية يهدف الى الحصول على قوانين كلية . مثال بياجي بحث في نشؤ المفاهيم والتصورات العقلية عند الطفل يعرض عل الطفل زجاجتين (أ)و (ب) فيهما ماء في نفس المستوى ثم يفرغ الزجاجة (ب) في زجاجتين (ب1) و(ب 2) ويطلب من الطفل المقارنة بين حجم الماء الموجود في الزجاجة (أ) والماء الموجود في الزجاجتين (ب1) و(ب2) قد يكتشف التساوي لكن يمكن تضليله لو افرغت الزجاجة (ب) في اربعة زجاجات (ب1)و(ب2)و(ب3)و(ب4) قد يعتقد ان الماء الموجود في هذه الزجاجات اكبر من الكمية الموجودة في الزجاجة (أ) .

رغم الاعتراضات الكثيرة النتقدة لعلن النفس فانه ساهم في تحرير الظاهرة النفسية من الاعتبارات الخرافية واصبح من الميسور توجيه السلوك و تعديله و اصبح علمالنفس مطلوب في المدارس و المصانع و الحروب .







2 . الظاهرة الاجتماعية

الظاهرة الاجتماعية

الظاهرة الاجتماعية ليس من السهل تحديدها دون تقاطع مع العولوم الإنسانية الأخرى بمعنى ان هذه الظاهرة او تلك ستكون محل دراسة من علم اخر من العلوم إنسانية . خذ مثلا ظاهرة الطلاق هل هي ظاهرة اجتماعية ام ظاهرة نفسية ؟ و الانتحار و باقي الآفات الاجتماعية ونشعر بهذه التداخل عندما نقرا ما كتبه دوركايم وهو يحاول تحديد الظاهرة الاجتماعية فيقول :" ان الناس يستعملون كلمة ـ اجتماعي ـ دون كثير من الدقة فهم يستخدمون هذا اللفظ عادة للدلالة تقريبا على جميع الظواهر التي توجد في المجتمع لا لسبب الا انها تنطوي بصفة عامة على بعض الفوائد الاجتماعية و لكن يمكننا القول بناء على ذلك ، بانه ما من حادثة إنسانية الا و يمكن لن يطلق عليها اسم ـ الظاهرة الاجتماعية ـ فان كل فرد منا يشرب و ينام و يأكل و يفكر ، وللمجتمع كل فائدة في ان يؤدي الفرد هذه الوظائف بطريقة مطردة ومن ثم فلو كانت هذه الاشياء ظواهر اجتماعية لما وجد موضوع خاص بعلم الاجتماع ، و لاختلط مجال بحثه بمجال البحث في كل من علم الحياة و علم النفس "

الامر الذي يجعل البعض يعتقد انه علم الاجتماع علم موسوعي غير متخصص و في هذه الحالة لا يجب ان يدرج ضمن باقي العلوم الإنسانية . الا ان إصرار علماء الاجتماع على ابراز معالم هذا العلم كشف في النهاية عن الظواهر التي يختص علم الاجتماع بدراستها و هي نفسها تلك الظواهر التي تبحث فيها العلوم الإنسانية الأخرى لكن الاختلاف يكمن في طريقة البحث فعلم النفس مثلا يستبعد من دراسته بعض الظواهر الاجتماعية بسبب عموميتها و كذلك علم الاقتصاد و السياسة و التاريخ فيأتي علم الاجتماع و يركز على هذه **الظواهر المهمشة** ، بمعنى يمكن القول ان **الظواهر الاجتماعية التي يدرسها علم الاجتماع ، تقع على هامش العلوم المتخصصة** فلا تلقى الاهتمام اللازم فيتدخل عالم الاجتماع و يركز الضوء عليها فيكشف عن علاقتها ودورها في المجتمع بشكل عام .

مفهوم علم الاجتماع

هو علم يبحث عن القوانين العامة التي تتحكم في الأحداث الإنسانية بغض النظر عن الزمان و المكان . يعرفه بيتر سوروكين بأنه العلم الذي يعني بدراسة الخصائص العامة لكل أنواع الظواهر الاجتماعية و ما ينشأ بينها من علاقات متبادلة . **يعرفه ماكس فيبر**. هو العلم الذي يحاول ان يتناول بالدراسة الفعل الاجتماعي وفهمه . فالجدل مثلا يدور حول ما ذا كان الجانب الاقتصادي من الوجود الإنساني هو الذي يحدد الأفكار الأخلاقية و الدينية كما يقول ماركس أم أن الأفكار و بخاصة الأفكار الدينية هي التي تؤثر في البناء الاقتصادي كما يذهب اليه ماكس فيبر أم أن العلاقة المتبادلة أكثر تعقيدا مما يذهب اليه كل منهما .

ان عالم الاقتصاد او المؤرخ لا يستطيع حل هذه المشكلة العلمية ، اذ أن كل منهما ينظر إليها و يتصورها من جانب واحد . و إذا فحل هذه المشكلة يدخل في نطاق علم ينهض فوق مستوى تقسيم الظواهر الاجتماعية الى ظواهر فرعية و هذه العلم هو **علم الاجتماع** ، الذي يدرس ما هو عام ومشترك بين المجالات الإنسانية ، فمهتمه هي الجمع بين نتائج العلوم الخاصة للربط بينها و البحث في الأحوال العامة للحياة الاجتماعية ، وهي أحوال كثيرا ما يتجاهلها العلماء المتخصصون ، لا لشيء ، إلا لعموميتها . فيقوم علم الاجتماع بإيجاد نظرة شاملة عن الحياة الاجتماعية بوجه عام و يتضح هذا



الرأي في كتابات كونت ودوركايم و سبنسر الذي تصور علم الاجتماع على انه علم فوقي لا يلاحظ بنفسه الظواهر الاجتماعية لكنه يوحد او يؤلف بين الملاحظات و التعميمات التي انتهت إليها العلوم الاجتماعية المحدودة .

هذا لا يعني أن علم الاجتماع علم موسوعي انه و ان كان يعالج العالم الاجتماعي الثقافي ككل فان هذا لا يعني انه دائرة معارف تحيط بكل العلوم الاجتماعية او انه فلسفة تركيبية غامضة . فهو علم على الرغم من طابعه التعميمي سيظل علم خاصا ، ذلك لان دراسة الخصائص المشتركة بين الظواهر و العلاقات القائمة بينها تتضمن نفس التخصص الذي يكون مطلوبا عند دراسة سمات خاصة لبعض أنواع العلاقات .

و خلاصة القول ان كل علم من العلوم الاجتماعية يختص بدراسة نظام معين في جزئياته و تفاصيله اما علم الاجتماع فيعني **بدراسة الخصائص المشتركة العامة بين مختلف النظم** و هو لا يهتم بالتفاصيل الا بقدر الذي يوضح الأسس العامة للنظام ثم يدرس العلاقات المتبادلة بين مختلف النظم في نشأتها و تطورها ومن ثم لا تتضمن دراسة علم الاجتماع مجموعة ما تدرسه العلوم الاجتماعية ، وإنما يمكن القول انه إذا كانت الفلسفة كما يعرفها البعض بأنها ام العلوم بمعنى انها تدرس الكليات التي لا تتعلق بعلم دون أخر، فإننا نستطيع القول بان علم الاجتماع هو الذي يهتم بكل مظاهر الحياة الاجتماعية و ماهو مشترك بين مختلف الظواهر و النظم الاجتماعية .

خصائص الظاهرة الاجتماعية وعوائق دراستها

1 - يتعذر التنبؤ بوقت حدوث الظاهرة الاجتماعية بسبب حرية الإرادة التي يتمتع بها الإنسان ، و تدخل عناصر بشكل مفاجئ ير منتظر .

2 - سلوك الانسان يحتمل تفسيرات مختلفة فردود فعله قد تكون أسبابها نفسية او اجتماعية بمختلف فروعها وفضلا عن هذا صعوبة الفصل بين هذه العوامل المؤدية الى ظاهرة ما حيث يصعب التنبؤ خاصة وان أفعاله قصدية ومنه فان عالم الطبيعة متجانس وقوانينه واحدة في كل الظروف والأحوال اما عالم الإنسان فهو متنوع وقوانينه متعددة قال جون ديوي : " ...وذلك لان ما قد أجريناه فيما مضى من عمليات تجريبية قد دل على ان نتائجها المحتمة ستتخذ أوضاعا معلومة الى درجة بعيدة من الدقة وليس الأمر كذلك بالنسبة الى الظواهر و الوقائع الاجتماعية و لا يمكن ان يكون أمرها شبيها بحالة الظواهر الطبيعية . ان الظاهرة الاجتماعية ليست اجتماعية خالصة بل يتداخل فيها الجانب البيولوجي مع الجانب النفسي و الجانب التاريخي وهذا يفسر تعدد المناهج في علم الاجتماع . وهذا يطرح إشكالية قيام علم يدرس هذه الجوانب بشكل علمي في ظل وجود علوم متخصصة في هذه الجوانب كعلم النفس و علم التاريخ و البيولوجيا .

3 - تتعرض الظواهر الاجتماعية إلى صعوبة في التحليل و في التقرير الكمي و في صياغة القوانين المضبوطة و غير ذلك من المسائل المتصلة بقواعد المنهج و أساليب البحث في علم الاجتماع .

4 - الظاهرة الاجتماعية ليست ظواهر طبيعية وليست أشياء مادية بمعنى لا تتحكم فيه القوانين الحتمية المعروفة في العلوم التجريبية لان الإنسان يتميز بالإرادة الحرة وهذا يجعل مهمة التنبؤ بسلوك الأفراد صعبة المنال .

5 - لا يمكن التعميم فإذا كانت العلوم التجريبية تقوم على الاستقراء الناقص ثم تعمم النتيجة فيما بعد فهذا غير ممكن في الظواهر الاجتماعية بسبب تعدد أبعاد الإنسان و بالتالي تعدد الأسباب المفضية للظاهرة الاجتماعية و تداخلها بحيث . يقول جون ستوارت مل : " ان الظواهر المعقدة و النتائج التي





ترجع الى علل و أسباب متداخلة لا تصلح ان تكون موضوعا حقيقيا للاستقراء العلمي المبني على الملاحظة و التجربة "

6 - ليس من السهل تحقيق الموضوعية و التغلب على الذاتية أثناء دراسة الظواهر الاجتماعية . وتعذر تطبيق النهج التجريبي .

7 - الظواهر الاجتماعية تؤثر في الأفراد و تطبعهم بطابعها الخاص فالفرد لا يستطيع ان يبدل لغة المجتمع الذي يعيش فيه و لا عقائده و تقاليده الا بما يسمح به المجتمع لان هذه الظواهر اسبق من الفرد في الوجود .

علاقة علم الاجتماع بالعلوم الاجتماعية

من الواضح ان كثير من الجوانب النفسية تتأثر الى حد كبير بعناصر مستمدة من المجتمع ، فذكاء الفرد و خياله و تصوراته و مدركاته الحسية و العقلية لا يمكن أن تكون فردية خالصة ، بل لابد من ان تكون متأثرة بعناصر مستمدة من تصورات اجتماعية كما ان هناك حالات يصعب فهمها بالاقتصار على التفسيرات النفسية البحتة ، فانحراف الأحداث قد يكون بسبب اضطرابات نفسية او مرض عقلي او عرض يعكس اضطراب اجتماعي او ضغط اقتصادي و قد يكون بسبب عوامل كثيرة متفاعلة خلقت الانحراف .

وهنا يكاد يلتقي علم النفس و علم الاجتماع عند نقطة معينة تشكل مبحثا متميزا لعلم النفس الاجتماعي الذي يركز على علاقة الفرد بالآخرين وليس من شك في ان علم النفس يعطي الباحث الاجتماعي معلومات أساسية عن الإنسان الفرد داخل المجتمع كما ان علم الاجتماع يعطي المتخصص في علم النفس معلومات أساسية عن الجماعات و التنظيمات التي يشترك فيها الفرد و التي تؤثر في قيمه و اتجاهاته و معاييره السلوكية ، و قد بين كثير من علماء الاجتماع الدعوة الى تحقيق التقارب بين الفرد و المجتمع و العمل على زيادة الربط بين علم النفس و علم الاجتماع و قد تمثل ذلك بوضوح في كتابات طالكون و برسونز الذي حاول في دراسته للشخصية و البناء الاجتماعي تحقيق التقارب بين اراء فرويد و دوركايم .

ونفس العلاقة تقوم بين علم الاجتماع و علم الاقتصاد فلا تقتصر الدراسة في الاقتصاد على دراسة الإنتاج و الاستهلاك باعتبارها كميات اقتصادية بل تتعمق في حقيقة هذه الكميات و العلاقات الاجتماعية القائمة بينها و القوى التي تحدد هذه الكميات . ومن الملاحظ ان علم الاقتصاد و بخاصة في المراحل الأولى من ظهوره كان يهتم بمتغيرات اقتصادية وحدها دون ان يدخل في اعتباره العوامل الاجتماعية ولكن هذه النظرة لم تدم بحيث أصبح علماء الاقتصاد يأخذون في دراستهم بالعوامل الاجتماعية لان العلاقات و الأنشطة الاقتصادية تتحكم فيها المصالح المشتركة للجماعة . ان هذا المدخل الاجتماعي في الاقتصاد يفيد في إعطاء صورة متكاملة عن جوانب الحياة الاجتماعية كما يفيد في الكشف عن تأثير المتغيرات الاجتماعية في عمليات الإنتاج و التبادل و الاستهلاك .

المنهج في علم الاجتماع

1 - الاتجاه العقلي

يعتمد على التفكير النظري المجرد و يتخذ من شمول النظرة ووضوح الرؤية هدف يسعى إلى تحقيقه . لقد بلغ هذا الاتجاه ذروته في دراسات الرواد الأوائل لعلم الاجتماع ، أمثال اوجست كونت وسبنسر و دوركايم و ماركس لجأ هؤلاء الرواد الى دراسة الموضوعات ذات الصبغة التاريخية و الفلسفية بحيث كانوا يعتمدون على النظرة الكلية الشاملة في دراسة الوقائع الاجتماعية و في وضع نظريات على





مستوى عال من التجريد . ويعتمد أصحاب هذا المنهج في تحليل الواقع الاجتماعي على التفكير النظري الذي تدور حلاقته في عقل البحثين و يتجه الى إرساء دعائم البناء المنطقي عن طريق إقامة انساق منطقية و أنماط تصورية .

وعرف هذا الاتجاه ايضا بالأسلوب الكلي ، لانه يركز على الدراسة الكلية الشاملة للوقائع الاجتماعية بإبعادها المتعددة و علاقاتها المتشابكة في كافة المجتمعات الإنسانية وفي صورتها الكلية . و قد استعان أنصار هذا الاتجاه بالمنهج التاريخي للوصول الى المبادئ العامة المتحكمة في الظواهر الاجتماعية والوقوف على عوامل تغيرها ونموها وانتقالها من حال الى حال . كما استعان أصحاب هذا الاتجاه بالمنهج المقارن للوصول الى تعميمات عريضة تتعلق بمختلف الظواهر و النظم و الأنساق . و هذا ما نجده عند **اوجست كونت** الذي يعود الفضل له في ابتكار مصطلح علم الاجتماع ، للدلالة على العلم النظري الذي يدرس الظواهر الاجتماعية بهدف معرفة القوانين التي تخضع لها في تطورها و تاثير بعضها في بعض يرى ان فشل المفكرين الاجتماعيين مصدره اعتمادهم على المنهج الميتافزيقي لذلك استبدله بمنهج وضعي يسمح باكتشاف القوانين المتحكمة في الظاهرة الاجتماعية .يقول : " سوف اشعر الناس عن طريق الواقع نفسه ان هناك قوانين لنمو النوع الإنساني تبلغ في دقتها قانون الجاذبية الذي يخضع له سقوط حجر " انه يوظف الملاحظة مع تعديلها و محاولة تجاوز عائق الذاتية .اما التجربة فتكون عن طريق المقارنة اذ ليس من الضروري ان يطلق علم الاجتماع زوجين ليعرف اثر ذلك على الأبناء بل يكفيه المقارنة بين أبناء من عائلة مستقرة و أبناء من أسرة مشتتة .

الا ان **دوركايم** تميز عنه بنظرتة الجديدة للظاهرة الاجتماعية ، حيث اعتبرها مجرد **أشياء** أي يمكن التعامل معها من الخارج كما هو معمول به في العلوم التجريبية وها هو يوضح موقفه يقول : " من القضايا التي أثارت اكبر قدر من الاعتراضات ، القضية القائلة بوجوب دراسة الظواهر الاجتماعية على انها ـ اشياء ـ و هذه القضية بالذات هي الاساس الذي تقوم عليه طريقتنا . فقد وجد بعض الناس اننا قد اغربنا في التفكير و سلكنا به مسلكا يدعوا الى السخط حين شبهنا حقائق العالم الاجتماعي بحقائق العالم الخارجي ولكن هؤلاء اخطأوا خطأ غريبا في فهم معنى هذا التشبيه . إننا لم نرم بهذا التشبيه الى النزول بصور الوجود العليا الى مستوى صوره السفلى ، و انما اردنا على العكس من ذلك ان نطالب للصور الأولى بمرتبة من الوجود الحقيقي مساوية على الأقل للمرتبة التي تحتلها الصور الثانية باعتراف الناس جميعا . و معنى ذلك اننا لا نقول في الواقع بان الظواهر الاجتماعية أشياء مادية ، و لكننا نقول أنها جديرة بان توصف بانها ـ اشياء ـ كالظواهر الطبيعية تماما وان كان وصفنا لها بذلك على اعتبار اخر ."

ثم يوضح معنى الشيء ، فالأشياء تقابل عالم الأفكار والشيء هو كل ما يمكن ان يكون مادة للمعرفة لا ان هذه المعرفة لا تنبع من الداخل بل تاتي من الخارج .يقول : " فما حقيقة الشيء في الواقع ؟ ان الشيء يقابل الفكرة بمعنى ان معرفتنا له تأتي من الخارج على حين ان معرفتنا بالفكرة تاتي من الداخل . و الشيء هو كل ما يصلح ان يكون مادة للمعرفة . ولكن بشرط الا تسمح له طبيعيته بان يندمج في العقل الذي يدركه ، و هو كل ما لا نستطيع ان نكون لا نفسنا عنه فكرة تنطبق عليه تمام الانطباق لمجرد قيامنا بعملية عقلية تحليلية . وهو كل ما لا يستطيع العقل ادراكه الا بشرط ان يخرج من عزلته ، وان ينتقل بالتدرج وعن طريق الملاحظة و التجربة من خواصه الأكثر ظهورا و الاقرب تناولا ، الى خواصه الأكثر خفاء و الأبعد غورا و حينئذ فليس معنى اننا نعالج طئفة خاصة من الظواهر على انها ـ اشياء ـ هو اننا ندخل هذه الظواهر في طائفة خاصة من الكائنات الطبيعية ، بل معنى ذلك اننا نسلك حيالها مسلكا عقليا خاصا ، أي اننا نأخذ في دراستها ، و قد تمسكنا بهذا المبدأ الاتي : وهو اننا





نجهل كل شيء عن حقيقتها ، و اننا لا نستطيع الكشف عن خواصها الذاتية او عن الاسباب المجهولة التي تخضع لها عن طريق الملاحظة الداخلية و مهما بلغت هذه الطريقة مبلغا كبيرا من الدقة ."
اصبح مفهوم علم الاجتماع يدل على الدراسة العلمية للمجتمعات هذه الدراسة التي تعتمد على الملاحظة و تقرير الواقع ثم المقارنة و التفسير بغية الوصول الى تعليل علمي للظواهر التي يدرسها و استخلاص القوانين التي تسير بمقتضاها هذه الظواهر . لقد استطاع دوركايم ان يثبث ان علم الاجتماع يستطيع ان يكون دون ان تكون له تبعية لعلم البيولوجيا او علم النفس كما اثبث ان الظاهرة الاجتماعية ظاهرة خاصة .

النقد

الباحث الذي يوظف هذا المنهج يكون هدفه الشمولية و تحقيق اكبر قدر من الوضوح للواقع الاجتماعي من دون الاعتماد على الأدوات و المقاييس التي تساعده على التقليل من مخاطر التحيز الذاتي ، كما ان أصحاب هذا الاتجاه يفتقدون الى ميزة أساسية في العلم و هي فكرة التراكم ، بمعنى اللاحق يعتمد على السابق ، فهؤلاء نجدهم يشرعون في بناء أنساقهم الفكرية بصفة مستقلة عن بعضهم البعض ، الأمر الذي يؤدي تناقضهم أحيانا .

الاتجاه الامبريقي

اتجهت اغلب البحوث السوسيولوجية في الولايات المتحدة الامريكية مند نهاية الحرب العالمية الاولى وجهة امبريقية خالصة فابتعد الباحثون عن معالجة القضايا النظرية و انصرفوا عن دراسة الموضوعات التي تتصل بالحياة الاجتماعية ككل و اتجهوا الى دراسة المشكلات الجزئية التي ترتبط بحاضر المجتمع و التي تقبل المشاهدة الحسية للتعرف على دقائقها و تفاصيلها و الوصول الى قضايا وواقع الحياة الاجتماعية ، فظهر الاتجاه الامبريقي في علم الاجتماع ، وهو منهج يأخذ من الظواهر الجزئية المحسوسة مجالا للدراسة . و الامبريقية صياغة عربية للكلمة الفرنسية empirique و الكلمة مشتقة من اللفظ اللاتيني empiricus الذي يعني الخبرة و يترجمها المعجم الفلسفي بكلمة تجريبي هذا الاتجاه ، يقرر ان التجربة مصدر المعرفة بخلاف الحال في المذهب العقلي .
و للتعرف على الاتجاه الامبريقي نرجع الى ما كتبه عنه لازر سفيلد و هو واحد من ممثلي الاتجاه و من اكثر المتحمسين لاستخدام النماذج الرياضية و الأساليب الاحصائية في البحوث السوسيولوجية فكتب يقول : " تمثل الامبريقية نقطة التحول الحقيقية من مرحلة الفلسفة الاجتماعية الى مرحلة علم الاجتماع التجريبي " و تتسم موضوعات الدراسة في البحوث الامبريقية بالسمات التالية :

- دراسة السلوك الواقعي للافراد بدلا من التركيز على دراسة تاريخ النظم و الأفكار
- الاهتمام بدراسة المواقف و المشكلات الاجتماعية المتكررة بدلا من التركيز على دراسة المواقف و المشكلات التى لها طابع فردي متميز
- دراسة الظواهر الاجتماعية المعاصرة بدلا من التركيز على دراسة الوقائع التاريخية ، حيث ان الباحث يستطيع الحصول على البيانات التي يريدها عن الظواهر المعاصرة بسهوله .
- عدم الاقتصار على دراسة قطاع واحد من قطاعات الحياة الإنسانية فيربط كل قطاع بغيره من القطاعات .
- الاعتماد على وسائل لجمع البيانات يقوم الباحث بتصميمها بنفسه كالاستبيان و المقابلة و الملاحظة .
- يقوم بتحليل البيانات و تفسيرها معتمدا على الأساليب الإحصائية ليتعرف على الارتباطات القائمة بين المتغيرات التي لها صلة بموضوع الدراسة .





العوامل التي أدت إلى نمو الاتجاه الامبريقي في علم الاجتماع

ـ التقدم الذي أحرزته العلوم الطبيعية و الرغبة في إضفاء الطابع الذي تميزت به عن الدراسات الاجتماعية و خاصة فيما يتعلق بتطبيق الأساليب و الإجراءات المنهجية التي يستخدمها في تلك العلوم في دراسة ظواهر المجتمع و مشكلاته

ـ الرغبة في تحرير الدراسات الاجتماعية من الارتباطات الإيديولوجية و التأكيد على ضرورة التزام الباحث البحث الاجتماعي لدراسة الواقع .

ـ زيادة الاهتمام بالجانب التطبيقي للعلم و الرغبة في توجيه البحوث الاجتماعية لحل المشكلات التي تواجه الجماعات و المؤسسات القائمة في المجتمع .

ـ اتفاق فلسفة البحث الامبريقي مع النزعة التحليلية التي أصبحت إحدى السمات المميزة للعصر .

ـ الاتجاه الامبريقي أكثر موضوعية ومن المعروف ان الموضوعية في العلوم الاجتماعية صعبة المنال غير ان هذا الاتجاه اقرب الى تحري الموضوعية من الاتجاه العقلي لان الباحث هنا يحاول ان يكون مثل الباحث في العلوم الطبيعية يعالج الظواهر المدروسة كما لو كانت أشياء و ذلك كونه يستعين بالأساليب التي تتسم بالصدق و الثبات .

وله القدرة على النمو التراكمي فهو يتابع ما توصل اليه باحث أخر امبريقي سابق فتكون هذه النتائج هي المقدمات التي يبدأ منها بحث لاحق .

نقد الاتجاه الامبريقي

الا ان هذا التوجه في الدراسات الاجتماعية رفضه البعض ومن هؤلاء نيقولا ديماشين بقوله : " ان تحليل الملاحظات و الشواهد الى صيغ رقمية او كمية كمعامل الارتباط و الأساليب الإحصائية الأخرى ما هو الا جزء من جانب مفيد في عملية نمو البحث في كثير من العلوم بما في ذلك علم الاجتماع و ما يحدث في الغالب ان هذه البيانات الكمية وهذه الأدوات المستخدمة في البحث تحقق هدفها شكليا اكثر مما تؤدي وظيفة علمية " . و الواقع ان تراكيب البيانات و المعالجة الإحصائية الماهرة لا يقدمان للعلم الا القليل و قد لا يقدمان على الإطلاق شيء في تقدمه ، ما لم تكن الأسس النظرية قد استقرت و هذا يتطلب توافر معرفة و فهم و تخيل خلاق .

علم الاجتماع بين الفهم و التفسير

الظواهر الاجتماعية عند البعض غير قابلة للتفسير كغيرها من الظواهر الانسانية لا نها غير خاضعة للسببية و الحتمية وانا هي قابلة للفهم فقط ، فعندما اشاهد ام تلطم ابنها ـ مثال قدمه ـ ياسبرس ـ فاني افهم مباشرة اسباب هذا السلوك ، ان الطفل لم يكن مطيعا ، ان افهم هذا التصرف و يسهل علي تفسيره لأنني كائن اجتماعي و ربما لانني مررت بتجربة الطفل في صغري ، ومن هنا نشأ توجه في علم الاجتماع يمثله كارل يسبيرس و ماكس فيبر يدعو ال ى فهم الظواهر الاجتماعية فقط من دون العمل على تفسيرها كما هو معمول به في العلوم التجريبية .

خاتمة : حل المشكلة

دراسة الإنسان بعيدا عن بعده البيولوجي بشكل علمي ، جاءت متأخرة لان الدراسات السابقة التي تناولت الإنسان كمادة وروح وككائن اجتماعي له بعد نفسي عند فلاسفة اليونان كانت مجرد تأملات



نظرية ذات صبغة ميتافزيقية . هذا ما نجده عند أفلاطون و أرسطو ونظرتهما الى النفس والمجتمع ، وقد عجز هؤلاء عن الارتقاء بهذه الأبحاث الى مستوى العلوم الرياضية وعلوم المادة واستمر وضعها على ما هو عليه حتى العصر الحديث ، وتحت تأثير الفكر الوضعي الجديد وبالنظر الى ما حققته العلوم التجريبية من تطور ظهرت العلوم الإنسانية واذا تجاوزنا ظروف ظهورها ونسبناها الى الحركة العلمية فلابد ان نبين مدى صحة هذا الوصف .

بداية العلوم الإنسانية مختلف في أمرها فهناك من يحصرها في التاريخ والفلسفة والآداب ، اما علم الاجتماع وعلم النفس والاقتصاد فهي علوم اجتماعية وهذا حسب التقسيم الإداري الأكاديمي الجامعي فاذا تجاوزنا هذا الإشكال ونركز على إمكانية وصف هذه الأنشطة الفكرية بالعلوم ، رغم تعددها وتنوع الظواهر الإنسانية المدروسة ، وهي حقا تنطوي على عوائق ابستمولوجية تصعب مهمة الباحث سواء في دراسة أحداث التاريخ او ظواهر المجتمع ام الحالات النفسية ، وعلى الرغم من غياب الدقة واليقين التي نجدها في العلوم التجريبية وفشل الدارس في التخلص من عامل الذاتية فان الحاجة الماسة لهذه العلوم تحتم وجودها ، ويمكن القول إنها فرضت نفسها كواقع علمي ولا يمكن استبعادها من الدراسات العلمية .

وما يثبت وجودها هو تلك المفارقة الغريبة ببين قدرة الإنسان على كشف المجهول سواء تعلق الأمر بعالم الذرة وأجزائها او عالم الكواكب والمجرات ، وبين هذا وذاك الظواهر الطبيعية المختلفة كل ذلك فسره ، ثم عندما ارتد الى نفسه يبحث فيها ، يعلن عن فشله ولتخطي هذا بدأت محاولات العلماء في إثبات إمكانية قيام علوم إنسانية بمعنى الكلمة ، وكانت البداية الجادة مع ابن خلدون في علم التاريخ الذي أخرجه من عالم الرواية والأسطورة وحدد له قواعده ليأتي بعد ذلك اوغست كونت ويقيم على الاجتماع الذي ارتقى مع دوركايم الى العلوم التجريبية ، لينفصل اخيرا علم النفس عن الفلسفة في القرن الـ 19 مع ابحاث السلوكيين واطسون وثورندايك وبافلوف وتوسع اكثر مع فرويد فأراد هؤلاء العلماء الوصول الى القوانين المتحكمة في الظواهر الإنسانية بمختلف ابعادها واذا تعرفنا على ما توصل اليه كل في مجاله نكون قد بينا قيمة العلوم الإنسانية .

لو بدأنا في التقييم من المناهج المتبعة فيها لوجدنا أنها مختلفة كثيرا عن المنهج التجريبي (الملاحظة ، الفرضية ، التجربة) فالملاحظة في العلم الإنسانية تكيف حسب الظاهرة والتجربة إن وجدت فهي أيضا تطبق بمعنى أخر ولو انتقلنا إلى النتائج فانه من البديهي ان تختلف حتى في العلم الواحد بسبب تعدد المناهج وهذا كله ناتج عن مميزات الظاهرة الإنسانية ونظيف الى كل هذا صعوبة التخلص من الذاتية ، وبالتالي استبعاد الموضوعية وهي غاية العلوم ويوضح برتراند راسل قيمة العلوم الإنسانية في قوله هذا " لو انك تعرف جهبذا من جهابذة العلم قد اعتاد الدقة الكمية التامة في تجاربه والمهارة اللماحة فيما يخلص اليه منها فانك تستطيع ان تجري عليه تجربة لن تضيع سدى في غالب الظن ، فلتناقشه في السياسة الحزبية او اللاهوت او ضريبة الدخل او سماسرة المنازل او شقوة الطبقات العاملة او ماشبه ذلك من الموضوعات ولتكن على ثقة تامة تقريبا من انه لن يمضي وقت قصير حتى ينفجر انفجارا وانك ستستمع اليه يدلي باراء لم تثبت قط في تعصب لا يبديه مطلقا ازاء النتائج الممحصة لتجاربه العلمية " هذا المفكر يرى من الطبيعي ان تتسم نتائج العلوم الإنسانية بهذه الميزات من عدم التيقن والتثبت فهي لا تستخدم الصيغ الرياضية لانها لم تصل بعد الى وضع قوانين بسبب غياب الحتمية فيها وهذا ما يشير اليه جون ديوي عندما رفض ان نقارن بين العلوم التجريبية والعلوم الانسانية واشترط لدراسة هذه الأخيرة ربط الظواهر الاجتماعية ليؤكد عدم الجدوى من طلب الموضوعية يقول : " واكرر القول بان الخطط ان هي الا فروض توجه الإجراءات العلمية وليست هي بالحقائق العقلية الثابتة ولا هي بالمبادئ المقطوع بصوابها " لكن لا جون ديوي ولا برتراند راسل





يدعوان الى استبعاد العلوم الإنسانية من مجال البحث العلمي هذا لأثرها الايجابي على الرغم افتقادها للدقة والموضوعية اللازمة وهذا عائق وان كانت تعاني منه بشكل واضح فان بعض العلوم المادية خاصة المتعلقة بالمادة للحية فإنها لم تحقق الموضوعية المرجوة التي نجدها في الفيزياء مثلا وحتى هذه الأخيرة لا تدعي اليقين المطلق في كل نتائجها .

تكتشف اثر العلوم الإنسانية من خلال تطبيق نتائجها في الاستفادة والاعتبار من أحداث الماضي والحد من الجريمة ومكافحة الآفات الاجتماعية والبحث عن أفضل النظم السياسية والاقتصادية والمحافظة على الأسرة من التفكك والتحصيل الجيد في المدارس وزرع الروح القتالية عند الجندي ورفع معنويات العامل ....أما الموضوعية فيها فلا يجب أن تؤخذ بمعناها المتداول عند التجريبيين بل تؤخذ بمعنى معرفة العوائق وسبل تجاوزها.

انتهى الدرس

تطبيق

هل التاريخ علم ؟

مقدمة : حول أهمية التاريخ في الأمم ؟
الأطروحة : التاريخ ليس علم
الأدلة : خصائص الظاهرة التاريخية
النقد : هذه الخصائص نجدها في بعض العلوم الأخرى
نقيض الأطروحة : التاريخ علم
الأدلة : له موضوع و له منهج
النقد : يفتقد الى الموضوعية
التركيب : التاريخ علم و لكنه لا يرقى الى مرتبة العلوم التجريبية
الخاتمة : حل المشكلة

